مدخل فقه اللغة (نشأة المصطلح، مفهومه)، الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة والفيلولوجيا

إنّ أبسط تعريف للغة هو أنّها " نظام من الأصوات يتواصل به أفراد مجتمع للتعبير عن حاجاتهم المادية والمعنوية"، ويتعلق مفهوم اللغة عند الفلاسفة من حيث اتصالها بالفكر، إذ يدرس المناطقة الانعكاس الذي تحدثه قوانين اللغة على الفكر الإنساني، بينما يهتم علماء الاجتماع باللغة من حيث الدور الذي تؤديه في قيام مجتمع ما، ويركز علماء النفس على اللغة من حيث التأثير الذي تحدثه على مظاهر التنظيم السلوكي والعمليات النفسية (الإدراك والتفكير والذاكرة ...)، كما أنّ اللغة حاضرة أيضا في الجانب الحضاري التي تتجلى في الصراع الحضاري والتغير الثقافي (المكان، دوافع الهجرات، قضايا التأثير الحضاري) (مصطفى غلفان، 2010، ص 12). فاللغة ظاهرة صوتية وذات وظيفة اجتماعية، ونفسية، وفلسفية، فهي تتنوع بتنوع المجتمعات الإنسانية، وعليه فاللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية.

1. **اللغة عند علماء العرب القدامى:** اعتنى علماء العرب القدامى ب**اللغة** من حيث التركيز على المفردات وكيف تصنف في المعاجم والكتب اللغوية، إذ تهتم هذه الأخيرة بالمفردات وفق حاجة الاستعمال من خلال التركيز على طبيعة الكلمة وأنواعها النحوية، وصيغتها الخطية والصوتية، وكذا معانيها واستعمالاتها ومستوياتها اللغوية والبحث في أصلها مرتبة وفق تطوراتها ومسالك معانيها، ومن بين المعاجم التي عاجت قضايا دقيقة في اللغة نذكر مثلا: معجم المخصص لابن السّيدة أبو الحسن بن إسماعيل النحوي الأندلسي (ت 458ه) كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت 276ه)، كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت (ت 244ه)، وغيرها من المعاجم التي اهتمت بالنحو (الأسماء والأفعال والأدوات والنعوت والظروف...).
استخدم علماء اللغة العربية القدماء، أمثال الخليل وسيبويه)، مصطلح "اللغة" بمعنى اللهجة؛ لغة هذيل، لغة تميم، لغة عقيل...، ويُقصد باللغة كل ما يُجمع من مفردات اللغة وعملية تصنيفها وترتيبها حسب معانيها ودلالاتها، فمجال النحو هو العمل بالعربية بينما مجال اللغة في النّص هو العمل باللغة ؛ أي " العلم المشهور في علم القراءة واللغة والعربية" (ابن الأنباري، محمود فهمي الحجازي نقلا عن: أحمد دراج، الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللسانية ص 70)، إذًا، ثمة فرق بين مصطلح "النحو" ومصطلح اللغة عند العرب القدامى، حيث كل من اهتم بجمع مفردات اللغة وعمل على تصنيفها حسب معانيها ودلالاتها عُدّ من اللغويين، ويؤكد ذلك كتب الطبقات مثل "معجم العين" للخليل، و" الرسائل اللغوية" للأصمعي، وكتب أخرى لأبي عبيدة وابن دريد والأزهري وغيرهم من اللغويين الذين ألفوا في المفردات ومعانيها.
لقد اهتم معجم النظام الإملائي بطريقة الكتابة والنطق والكشف عن أوزان القوافي وتفسير وضعية علامات التنقيط، واهتم المعجم الدلالي بالمفردات من حيث معانيها ومكانتها في اللغة، أسباب وجودها وتطوّرها، الترادف والتضاد، وعالج معجم الوحدات الجملية، التراكيب أو التعابير الجاهزة والمعبّرة عن معاني الحياة بمختلف أشكالها والتي تدل بشكل فني في لسان أو وسط أو تخصص، أو فترة زمنية ما، أو هي خاصة بشخص معيّن. وثمة أيضا المعجم السياقي الذي يعنى بالسياقات التي يرد فيها لفظ معيّن، يشير إلى جميع الدلالات التي تصاحب مختلف السياقات، ويحدّد ميدان استعمال الكلمة بعد توضيح اتجاهاتها الدلالية (معجم الأمثال ومعجم التعابير).
يعدُّ مصطلح " **متن اللغة**" من بين المصطلحات التي ظهرت في الدراسات اللغوية العربية، وقد أُستخدم ليدل على دراسة مفردات اللغة، ويرادف مصطلح " متن اللغة" عند البعض مصطلح " علم المفردات والمعاجم"، لأنّه موضوع تتمحور دراسته اللغوية حول المفردات معانيها ومبانيها.
لقد تتابعت الدراسات اللغوية وتنوعت وازدهرت اكثر في القرن الرابع الهجري، وقد استخدم في هذه الحقبة مصطلح "**الفقه**" ليدل على علم الشريعة، ويؤكد ذلك ابن جني قائلا أنّ:" الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفته ترخص به علم الشريعة من التحليل والتحريم (ابن جني، الخصائص، ص 34)، وقد استخدم ابن جني "أصول النحو" بدل استخدام مصطلح "فقه اللغة" من أجل الإشارة إلى الفهم والمعرفة، إذ يقول:" أننا لم نر أحدا من علماء البلدين (البصرة والكوفة) تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام

والفقه" (نفسه، ص 133)، ويرى الباحثون أن مدلول مصطلح "فقه اللغة" عند العرب يختلف عن مدلوله عند الغربيين. ماذا يُقصد بفقه اللغة؟ وماهي مناهله؟

2. نشأة مصطلح "فقه اللغة" :

1.2 "الفقه" لغة:

هو" العلم بالشيء، والفهم له، وفقه فقها بمعنى علم علما"؛

- " فقَه: سبق غيره في الفهم"

- "فقُه: صار الفقه له سجيّة وطبيعة"

- والفقه الفطنة، وقد غلُب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر العلوم، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام، وبأصول الشريعة، وأحكامها: فقيه" (محمد أسعد النادري، فقه اللغة مناهله ومسائله، ص 18)

فـــ "فقه اللغة في الاصطلاح الديني هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية".

ومن أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم اللغوية نتساءل: هل مصطلح فقه اللغة يؤدي معنى مصطلح "علم اللغة" و"الفيلولوجيا"؟

كان أوّل ظهور لمصطلح "الفيلولوجيا" (Philology) في الدّراسات اللغوية اليونانية أوائل القرن الأول قبل الميلاد، وقد عُرف مصطلح "الفيلولوجيا" قديما بمصطلح "علم النّصوص" الذي يعنى بمجال تحقيق المخطوطات وفك رموز الكتابات والنقوش القديمة، وقد توسّع استخدام هذا المصطلح في القرن الثامن عشر متزامنا مع الحركة العلمية التي ظهرت على يد " فريديريك أوجست" (Fridirich August)، حيث لم يقتصر مفهوم " الفيلولوجيا" في هذه الحقبة على دراسة اللغة فقط بل أخذ في الحسبان المجال الثقافي والتاريخي وكذا التقاليد والنتاج الأدبي (أنظر: أحمد دراج، المرجع نفسه، ص72).

ويشير مصطلح " الفيلولوجيا المقارنة" (Comparative Philology) إلى الدّراسات التي تبحث في علاقة اللغات بأسرها انطلاقا من الاهتمام بالنّصوص القديمة (علاقة اللغة السنسكريتية وعلاقتها بالأسرة الهندوأوروبية، علاقة الأكادية والأوجارتية بأسرة اللغات السامية، بالإضافة إلى مقارنة النقوش العربية الجنوبية، التي تم اكتشافها بين القرن التاسع عشر والعشرين ، باللغات السامية الأخرى كاللغة العربية (الشمالية) والعبرية والآرامية وفروعها والحبشية وغيرها من اللغات). (أنظر: أحمد دراج، المرجع نفسه، ص نفسها).

لقد تداخل مفهوم "الفيلولوجيا" مع مفهوم "فقه اللغة" و"علم اللغة"، لذا ينبغي التمييز بين المفاهيم وضبط المجال الذي يعنى به كل مفهوم.

1.2 مصطلح فقه اللغة:

لقد استعمل مصطلح "فقه اللغة" لأول مرة في كتاب أحمد بن فارس (ت 395ه) المعنون بـ (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها)، وقد عالج ابن فارس في هذا الكتاب قضايا لغوية كثيرة منها ما يتعلق بالنحو والصرف ومنها ما يتعلق بالبلاغة والشعر والعروض والنقد الأدبي؛ أي القضايا التي اهتم بها العلماء العرب حيث يقول في مقدمة كتابه: ((والذي جمعناه في مؤلفنا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وإنّما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق)). ويقول أيضا: "اعلم أن لعلم العرب أصلا وفرعا، فأما الفرع فمعرفة الأسماء كزيد وعمرو، وتقدير الأفعال نحو ضرب ويضرب، ومعرفة الإعراب كرفع الفاعل ونصب المفعول... وأما الأصل فالاحتجاج في ذلك بالسنن المأثورة، والحجج المشهورة، مما نطق به كتاب الله عز وجل، أو جاءت به السنة، أو أجمعت عليه العرب". (ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، (المقدمة ص 11)).

وفي طبعة أخرى يقول بن فارس:" إنّ لعلم العرب أصلا وفرعا: أما الفرع فمعرفة الأسماء والص{فات كقولنا: رجل وفرس وطويل وقصير، وهذا الذي يبدأ به عند التعلم، وأمّا الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثمّ على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتنان حقيقة ومجازا" (نقلا عن تمام حسان، الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص 247).

مدخل فقه اللغة (نشأة المصطلح، مفهومه)، الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة والفيلولوجيا

كما ظهر مصطلح "فقه اللغة" في عنوان كتاب "أبى منصور الثعالبي 429ه" (فقه اللغة وسر العربية) الذي اقتصر على جمع الألفاظ ودراستها من حيث إنها تدل على أشياء تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه (الألفاظ الدالة على اللباس، أصوات الخيل، أعمار الإنسان...).

اختلفت الآراء في العصر الحديث حول مفهوم "فقه اللغة"، هناك من جعله مرادفا لـ" علم اللغة" وهناك من رأى عكس ذلك؛ حيث ثمة صعوبة في التمييز بين المصطلحين، يرى: **(محمد أسعد النادري، فقه اللغة مناهله ومسائله، ص 22-23)**

- محمد صبحي في كتابه (دراسات في فقه اللغة): " إنّه من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة، لأنّ جل مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب قديما وحديثا، وقد سمح هذا التداخل أحيانا بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى"

- محمد مبارك:" إنّ علم اللغة بهذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في التطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين (علم اللغة) أو(فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود، وينطبق على المفهوم العلمي"

ويرى فريق آخر من اللغويين العرب المحدثين أنّه هناك فرق بين المصطلحين، (فقه اللغة وعلم اللغة) والفيلولوجيا إذ يرى:

- محمود فهمي حجازي: " فعلم اللغة بمفهومه الحديث يختلف عن علم النّصوص القديمة **Philology**، ويعتبر العمل الفيلولوجي بذلك أساسا لعلم اللغة ولغيره من العلوم التي تعنى بتفسير النّصوص وتحليل مادتها، فتحقيق ديوان من الدواوين المخطوطة تعتبر عملا فيلولوجيا يفيد البحث في اللغة كما يبحث في الأدب، لكنه لا يدخل في مجال علم اللغة، فالدراسة اللغوية للديوان تعني دراسة النّص من جوانبه الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، أي من الجوانب التي تعارف العلماء على جعلها مجال البحث في علم اللغة"؛ بمعنى أنّ:

- يختلف علم اللغة عن الفيلولوجيا (تحليل الدواوين المخطوطة هو العمل الفيلولوجي)
- تعنى الدراسة اللغوية للدواوين بدراسة النّص من حيث مستويات اللغة الأربعة (المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي).

- عبده الراجحي:" غني عن البيان الآن أنّ ثمة فرقا واضحا بين موضوعي العلمين ومنهجيهما في درس اللغة"

- عبد الصبور شاهين: " إذن فإن هناك فرقا كبيرا بين مفهوم المصطلحين في الثقافة القديمة والحديثة، وهو فرق ينبغي أن يراعي عند استعمال أيهما، نظرا إلى أنّ أغلب ما بأيدينا الآن من الكنب التي تحمل عنوان " فقه اللغة" أو "علم اللغة" إنما يجري على الاستعمال الحديث، وهو اعتبار الأول خاصا بدراسة العربية وخصائصها، على حين يستخدم الثاني استخداما شاملا في ما يتصل بالعربية وغيرها من اللغات، من فصيلتها أو غيرها"؛ فموضوع علم اللغة هو اللغة، التي يدرسها دراسة علمية وصفية وموضوعية، يركّز على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي؛ حيث يشمل:

- المستوى الصوتي على: علم الأصوات العام (Phonetics- Phonétique)/ علم الأصوات الوظيفي (Phonology-Phonologie)
- المستوى الصرفي: (Morphology- Morphologie) بناء الكلمة (الوحدات الصرفية والصيّغ اللغوية)
- المستوى النحوي: (Grammaire – Grammar) بناء الجملة (التراكيب وخصائصها)
- المستوى الدلالي (المعجمي): (sémantique- semantics) دراسة معاني الألفاظ المفردة، الجمل والعبارات.

وعلية ترتكز دراسة اللغة على المستويات الأربعة جميعها، المذكورة أعلاه، ولا يمكن الفصل بينها.

مدخل فقه اللغة (نشأة المصطلح، مفهومه)، الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة والفيلولوجيا

ويلخص تمام حسان موضوع فقه اللغة هو" الكلمات المفردة يحصيها ويتكلم في علاقة واللفظ باللفظ وعلاقة اللفظ بالمعنى وعلاقة اللفظ بالاستعمال" **(تمام حسان، الأصول، ص 243)**، وبذلك ففقه اللغة علم موضوعي، إذ يهتم باللفظ ومختلف علاقته: علاقته بلفظ آخر، أو بمعناه، أو باستعماله، ووضح تمام حسان موضوع فقه اللغة من خلال الشكل الآتي: **(تمام حسان، الأصول، ص 249)**